شاعر الحنين وأستاذ الوفاء

لأبي الطيب طعم خاص في عالم الحنين إلى أهله وشبابه وموطنه، حتى مع من طرده وأقصاه ونفاه، يقول لسيف الدولة بعدما فارقه إلى مصر:

رمَى واتَّقَى رمْيِي ومنْ دُونِ ما اتَّقى هَوًى كاسرٌ كَفّي وقوسِي وأسهُمي

ومعنى البيت أن سيف الدولة رماني ـ سامحه الله ـ بالجفاء والإبعاد وأنا لا أستطيع أن أرميه؛ لأن له في قلبي محبة دفينة، وودًا دافئًا، وميلًا كامنًا، كلما أردت أن أرميه وأنتقم منه كسر هواه وحبه في قلبي كفي وقوسي وأسهمي، ولكن انظر إلى نصاعة البيت وحلاوته وانسيابه.

ويفارق أحبابه فيصرخ:

يا منْ يعزُّ علينا أن نفارقَهم وجَدَانَنا كلَّ شيءٍ بعدكم عدمُ

يعني يوم ارتحلنا عنكم مكرهين أظلمت أمامنا الطرق، وسدت في وجوهنا الأبواب، وما عاد شيء يبهجنا، وما صار لدينا متعة تسلينا، ولا منظر يعجبنا. بل قال عن وفائه وحفظه للعهد:

خَلِقت ألُوفًا لو رَجَعْت إلى الصِّبا لفارقتُ شيبي موجَعَ القلبِ باكيَا

يا الله! إلى هذا الحد وصل بك الوفاء يا شاعر العربية. إن الإيحاء الشعري فوق قضية البحر والوزن والقافية والروي، إنه سرٌّ يجري في الأبيات، وسحر

يكمن في القصائد، يفعل بالأرواح فعل الغرام الهائج، أو الهيام المائج، وللمتنبي في باب الحنين مقامات مثيرة وشجون آسرة يقول:

نحنُ أدْرى وقدْ سألنا بنجدٍ أطويلُ طريقنُا أم يطولُ

وكثيرٌ من السؤالِ اشتياقٌ وكثيرٌ من ردِّه تعليلُ

لله درك يا بن الحسين، يا صاحب البديهة الحية والقافية الذائعة، لقد سكبت على قلوبنا فيوضات من الشجون الذي لا ينتهي، والحنين الذي لا يهدأ.

أما أولئك الشعراء الذين يملؤون بطونهم من طعام الخليفة، حتى إذا أتخم أحدهم قام ينظم قصيدة طويلة ثقيلة باردة سمجة، فلن نقرأ لهم جزاءً وفاقًا على بلادتهم وغباوتهم.

ويقول أبو الطيب وهو يحن لممدوحه، يعده بحسن تعاهده، وحفظ مودته:

أروحَ وقد ختمتُ على فؤادي بحبكَ أن يحلَّ به سواكا

فانظر كيف أغلق قلبه وسد منافذه لئلا يصل إليه محبوب آخر، واسمع إلى دفء هذا الحنين:

ما لاحَ برقٌ أو ترنمَ طائرٌ إلا انثنيت ولي فؤادٌ شيِّقُ

إن مرهف الإحساس، صافي الروح، تذكره المشاهد أحبابه، فيذكر ملاعب الصبا، ومراتع الشباب، ومعاهد الطفولة، ومنازل الأصحاب، وخيام الجيران، أما المعاق نفسيًا، الميت عاطفيًا، فله حديث مع الخبز، وقصة مع الفول، وقصيدة مع التمر الهندي:

من لم يبتْ والحبُّ ملءُ فؤادهِ لم يدرِ كيفَ تُفتتُّ الأكبادِ

وقديمًا قال أحدهم:

ولو كنت عَذْري المحبـةِ لم تكنْ بِطينًا وأنساك الهوى كثرةَ الأكلِ

وقال آخر:

ولما ادعيتُ الحبُّ قالت كذبتني ألست أرى الأعضاءَ منك كواسيا

وقال آخر:

يُبكى علينا ولا نَبكي على أحدٍ لنحن أغلظُ أكبادًا من الإبـل

أما المتنبي فقد ذابت حشاشته مما به من الحنين يقول:

وعذلتُ أهلَ العشقِ حتى ذقتُّه فعجبتُ كيف يموتُ من لا يعشقُ

ويقول:

كفى بجسمي نحولًا أنني رجلٌ لولا مخاطبتي إياكَ لم ترني

obeikandl.com